محاولة لتفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾

ثائر أحمد سلامة، أبو مالك

عندما نرفع أبصارنا إلى السماء الشاسعة، نرى مشهدًا مذهلًا يتجلى في توسع الكون، حيث تتباعد المجرات عن بعضها البعض بشكل منتظم وبسرعات منتظمة متساوية تتناسب مع بعدها عنا. هذا التوسع ليس مجرد حركة عشوائية، بل هو نمط منظم ينبئنا بسر عظيم. فإذا ما عدنا بالزمن إلى الوراء، سنجد أن هذه المجرات، التي تبدو اليوم بعيدة ومتفرقة، كانت أقرب بعضها مع بعض تدريجيًا. ومع كل خطوة نخطوها في رحلتنا الزمنية نحو الماضي، تتقلص المسافات بينها، حتى نصل إلى اللحظة الصفر، لحظة البداية، حين كانت كل المادة والطاقة والزمان والمكان مدمجة في رتق واحد، نقطة واحدة شديدة الكثافة، قبل أن "ينفجر" الكون ويتوسع ليأخذ شكله الحالي.

لكن السؤال الأخطر هو: هل كان انفجارا؟ هل تسمية البيج بانج صحيحة؟

حين نعود بالزمن إلى الوراء لدراسة لحظة نشوء الكون بعد خلقه، نجد أنفسنا عند حدود الثانية الأولى التي تلت "الانفجار العظيم"، مقتربين من زمن بلانك، الذي يمثل 10^-43 جزءًا من الثانية الأولى. في تلك اللحظة، كانت مادة الكون متصلبة بشكل لا يمكن للعقل إدراكه، شديدة الكثافة، والحرارة، والضغط. لكن، على الرغم من التصلب الهائل، لا يمكن أن تصل المادة إلى قيم لانهائية من التصلب، لأن زيادة التصلب تؤدي إلى زيادة سرعة الصوت، التي لو تجاوزت سرعة الضوء لكان ذلك مستحيلًا فيزيائيًا. هذا يعني أن هناك حدًا معينًا لتصلب المادة، وعندما تصل إليه، تتغلب الجاذبية على التصلب وتضغط المادة إلى نقطة بالغة الصغر. ولكن، ما هي القوة المضادة التي ستفتق هذه الجاذبية وتدفع المادة إلى التوسع؟ أي ستباعد المادة بعضها عن بعض بصورة متناغمة، لا بد أنها قوة أكبر من الجاذبية، لا بد من حساب دقيق لمقدار تلك القوة واتجاهها، لأن "الانفجار العظيم" لم يكن فوضويًا، بل كان نتيجة توازن محكم حيث إن مفهوم التعبير المنتظم هنا يشير إلى القيمة الدقيقة للطاقة المظلمة أو الثابت الكوني نفسه، وليس بالضرورة إلى الفرق بين قوة الجاذبية والقوة المضادة للجاذبية.

التعبير يكون متعلقا بالقيمة المحددة للطاقة المظلمة، حيث يجب أن تكون هذه القيمة ضمن نطاق ضيق للغاية. إذا كانت هذه القيمة أعلى بقليل، فإن الكون كان سيتوسع بسرعة كبيرة تمنع تشكل الهياكل الكونية مثل المجرات، وإذا كانت أقل بقليل، فإن الجاذبية كانت ستتسبب في انهيار الكون على نفسه.

تتنازع حركة الكون قوتان: قوة الجاذبية تدفعه للانكماش، وقوة مضـاد الجاذبية، وتدفعه للتوسـع، وقد تغلبت قوة مضـــاد الجاذبية على قوة الجاذبية واتخذت قيمة الطاقة المظلمة مقدارا معيرا حتى جزيء واحد من مليار مليار جزيء، ولو اختلف ذلك التعيير المنضـبط الدقيق بهذا المقدار لانكمش الكون بفعل الجاذبية لو كان الفرق باتجاه قوة الجاذبية، أو تشـتت فلا يتشـكل منه كون، لو زادت قوة مضـاد الجاذبية بهذا المقدار الصـغير عن قيمتها المعينة المحسـوبة بدقة، والتي بدأت توسـع الكون، وهذا يعني أن كثافة الكون كانت ولا بد هي الكثافة الحرجة بالضـبط، وهذه الكثافة هي كثافة الكون المسـطح تماما، ولا يمكن أن يكون الأمر إلا بهذه الطريقة.

يقدر سـتيفن هاوكينج أنه "حتى انخفاض بمقدار جزء واحد في المليون مليون عندما كانت درجة الحرارة 10^{+10} درجة "كان من شأنه أن يؤدي إلى بدء الكون في الإنكماش عندما بلغت درجة الحرارة 10000 درجة."[1]

ستيفن هاوكينج - "A Brief History of Time" :محاضراته وأبحاثه حول نشأة الكون والانفجار العظيم.

لقد قام البروفيســور باول ديفيز أســتاذ الفيزياء الرياضــية في جامعة اديلياد الأســترالية بإجراء أبحاث عديدة وانتهى إلى نتيجة مدهشـة وهي أنّ أي تغير في سـرعة تمدد الكون مهما كان ضـئيلا، حتى لو كان بنسـبة 1 / 10^{18} أي 1 إلى مليار مليار **حين الانفجار الكوني لما** اســتطاع الكون أن يظهر إلى الوجود، ويمكننا أن نكتب النســبة المئوية الســابقة كما يلي 0.000000000000000001 أي أن مجرد حدوث تغيير ولو بهذا المقدار الضئيل جدا جدا يعني عدم إمكانية ظهور الكون! ويعلق البروفيسور على هذه النتيجة قائلا :

"إن الحســابات تدل على أنّ الكون يتمدد بســرعة دقيقة للغاية، ولو أبطأ الكون في التمدد قليلا لحدث الانكماش نتيجة قوة الجذب، ولو أسرع قليلا لتشتّتت المادة واندثرت في الفضاء الكوني، وإن التوازن الحاصل بين هذين الاحتمالين الخطيرين يعكس لنا مدى الدقة والحسـاسـية في هذه السـرعة، فلو تغيّرت سـرعة تمدد الكون بعد الانفجار ولو بمقدار 1 / 10^{18} لكان ذلك كافيا لإحداث خلل في التوازن، لذلك فإن ســرعة تمدد الكون محددة بشــكل دقيق إلى درجة مذهلة، ونتيجة لهذه الحقيقة لا يمكن اعتبار الـــBIG BANG انفجارا عاديا **بل انفجارا منظما ومحسوبا بدقة من كافة النواحي**"[2].

---

[1] Page 285 of Confrontation of Cosmological Theories with Observational Data (Dordrecht: 1974), ed. M.S. Longair. The Prerequisites of Life in Our Universe John Leslie

[2] Paul Davies، Superforce: The Search for a Grand Unified Theory of Nature، 1984، p. 184.

بول ديفيز "The Goldilocks Enigma: Why Is the Universe Just Right for Life?" :و "The Mind of God: Science and the Search for Ultimate Meaning" - أعماله التي تناقش دقة التوازن في الكون.

لكن دراسات أحدث توصلت إلى أرقام أشد دقة في التعيير المنضبط الدقيق للطاقة المظلمة التي تدفع الكون للتوسع:

أبحاث حول "الطاقة المظلمة":

- الأبحاث الحديثة التي تتناول "الطاقة المظلمة"، والتي تشكل حوالي 68% من مكونات الكون، والتي تدفع الكون للتوسع، تشير إلى أن هذه الطاقة تلعب دورًا حاسمًا في توسع الكون. إحدى الدراسات التي نشرتها مجلة *Physical Review Letters* في 2018، ناقشت إمكانية حدوث تغير بسيط في الطاقة المظلمة قد يغير بشكل كبير من مصير الكون. وتشير النتائج إلى أن أي تغير بنسبة 1/10^60 في كثافة الطاقة المظلمة كان يمكن أن يؤدي إلى إما انهيار الكون أو توسعه بشكل مفرط إلى درجة تشتته، يعني كان تعيير قوة الطاقة المظلمة التي تضاد الجاذبية بمقدار لو اختلف عن قيمته الحالية بجزء واحد من 10 أمامها ستين صفرا، من الأجزاء، لما نتج عن الانفجار العظيم الكون الذي نعرفه! أي عظمة هذه في التصميم الدقيق المحكم للكون!

يقول باول ديفيز: "إذا استطاع المرء أن يعود بالكون القهقرى، إذ ستتقارب المجرات أكثر وأكثر حتى تندمج مع بعضها بعضاً وتنضغط مادتها أكثر وأكثر حتى تصبح في حالة تكثف (تركيز) هائلة، وقد يعجب المرء في رحلة القهقرى هذه عما **إذا كانت هناك حدود أو درجة معينة لهذا الانضغاط**، ومن السهل ملاحظة أنه ليس ثمة حدا سهلا لذلك، فلنفترض أن هناك حدا أقصى للانضغاط وعليه **فلا بد من الحاجة لوجود قوة من نوع ما تدفع باتجاه الخارج وقادرة على "قهر" هذه الجاذبية الهائلة وإلا ستتغلب هذه الأخيرة وتستمر المادة في الانضغاط أكثر**، والأكثر من ذلك أنه لا بد لهذه **القوة التي تدفع باتجاه الخارج أن تكون هائلة لأن الجاذبية الداخلية تنمو أكثر بلا حدود مع ازدياد الانضغاط**! إذن ماذا يمكن أن تكون هذه القوة اللازمة لتحقيق الاستقرار؟ ومع ذلك، على الرغم من أننا لا نعرف تفاصيل تلك القوى، إلا أنه لا يزال يتعين تطبيق بعض الاعتبارات العامة."[3]

---

[3] باول ديفيز، الاقتراب من الله بحث في أصل الكون وكيف بدأ، The Mind of God ترجمة منير شريف ص 66 **ملاحظة: الترجمة العربية لهذا الكتاب فيها أخطاء، وقد اضطررت للرجوع للنسخة الإنجليزية لتصحيح الترجمة، والنص في ص 48-49** النسخة الإنجليزية.

توقف قليلا و انتبه للمسألة التالية المهمة جدا لإثبات أن الكون مخلوق!

بالعودة إلى الوراء، نجد أن الكون بدأ بقيم قصوى من الحرارة والضغط والكثافة، ثم بدأت هذه القيم في التناقص مع مرور الزمن. ولكن، ما يثير الدهشة هو أن هذه القيم لم تُكتسب نتيجة لضغط المادة ذاتيًا، بل وُجدت منذ لحظة الخلق. هذا يدل على أن المادة خُلقت بقيم قصوى من البداية، وأن هذه القيم أعطيت لها من خارجها، من الخالق. وهذا بدوره يشير إلى وجود خالق قادر على إعطاء المادة تلك القيم القصوى وتحديدها بدقة، ثم أخذت هذه القيم بالتناقص، كانت حرارة الكون لحظة الانفجار العظيم تقارب 10 ^ **32 كلفن، هذا الرقم يمكن وصفه بأنه مئة مليون تريليون تريليون كلفن**، هذه الحرارة هائلة بدرجة لا يمكن مقارنتها بأي شيء نعرفه اليوم، أعطيت للكون لحظة خلقه، ولم يكتسبها الكون نتيجة انضغاطه، أما تقديرات الضغط في تلك اللحظة فتتجاوز بكثير أي شيء يمكن تصوره، ويقدر بحوالي 10 مرفوعة للقوة 94 **باسكال، و أيضا، قيمة الانضغاط لم تتشكل نتيجة رجوعنا بسهم الزمن للوراء (وسهم الزمن لا يتجه من المستقبل إلى الماضي) بل هي قيمة ابتدائية أعطيت للمادة نتيجة الخلق، لأن المادة والطاقة، والزمان والمكان كلها بدأت في لحظة الخلق، بتلك القيم القصوى الابتدائية الناتجة عن الخلق!**

لكن الكون لم ينفجر نتيجة للضغط العالي، بل نتيجة لتعبير دقيق جدًا لمتغيرات كثيرة، بحيث يكون الانفجار منظمًا وليس عشوائيًا. كما قال الدكتور مارتن ريس، "الضغط في الكون المبكر كان **ذاته في جميع النواحي**، فلم تكن هناك حواف أو مناطق خالية"، يعني لو تخيلنا كل مادة الكون التي شكلت هذا الفضاء الواسع من السماوات التي تمتد اليوم لأكثر من 92 مليار سنة ضوئية تملؤها مجرات تفوق المائتي مليار مجرة، كلها كانت منضغطة في حيز بالغ الصغر بالغ الكثافة شديد الانضغاط، شديد الحرارة، فإننا سنجد أن وصف الانفجار العظيم هو أبعد ما يكون عن الدقة في وصف انفتاق هذا الرتق الذي حوى كل هذه المادة والطاقة، لأن الانفتاق هذا يجب أن يكون بالغ الانتظام،

مما يعني أن الانفجار العظيم كان أقرب إلى الانفتاق المنظم منه إلى الانفجار العشوائي. هذا الانفجار المنظم هو دليل على الخالق الذي نظم الكون منذ لحظة الخلق الأولى.

وقبل أن نخوض في الفرق المهم، نريد أن نبين أن الدكتور مارتن ريس يقول: "بردت الغازات البدائية وانحلت؛ تمامًا كما يحصل لمحتويات صندوق ينفتح، كما أبطأت الجاذبية الفائقة في الحقيقة، والناتجة عن الضغط والطاقة الحرارية، من التوسع هذه الصورة متناغمة، لكنها **تترك لغزًا خلفها**؛ فبالرغم من كل شيء –وبما أن التشبيه بالانفجار معيب– نجدها لا تفسر سبب التوسع الحاصل على الإطلاق، إذ تسلم نظرية الانفجار الكبير **بأن كل شيء كان مُعَدّاً وفق الطاقة الكافية ليحصل التوسع**. ويجب النظر في المراحل

المبكرة المستقرة، للإجابة عن سبب حدوث التوسع أساسا، بينما لا نملك الدليل المباشر على تلك الفيزياء والفهم الوافي لها"[4].

وهذا هو مربط الفرس في سؤالنا عن سهم الزمن واتجاه حركته بالضبط من الماضي للمستقبل وليس العكس، **فكل شيء إذن، كان مجهزا، ومعدا سلفا وفق الطاقة الكافية، بل والحرارة اللازمة والضغط اللازم والجاذبية اللازمة، ولم يُعدّ أو يُجَهَّزَ بهذه الأرقام بفضل "عوامل داخلية في المادة تسببها انجذاب أكثر أو انضغاط أكثر**...الخ"!

لو كان الموضوع أن الكون كان ينكمش وينكمش وينضغط أكثر بالرجوع للوراء لقلنا أن القيم التي وصل إليها كانت نتيجة ذلك الانضغاط أو الانكماش، أي لقلنا، تلك عوامل ذاتية وقيم حصلت عليها المادة بفضل انضغاطها الذاتي، **لكن الكون ابتدأ بتلك القيم، ومن ثم أخذت تلك القيم بالتناقص** كلما سار سهم الزمن منطلقا من لحظة الصفر إلى الحاضر، لذلك **فهذه القيم أعطيت للمادة لحظة خلقها من خارجها**، من الخالق، ولم تحصل عليها المادة نتيجة "انضغاطها" الذاتي، أو "تأثير قوة الجاذبية عليها ذاتيا" لم ترفع الجاذبية تلك القيم من قيم أصغر إلى قيم قصوى، بل وجدت في تلك القيم القصوى مباشرة، **دفعة واحدة** من غير سابقة، في لحظة البداية، لقد بدأت بها، **فهذا يدل على حاجتها لمن يوجد فيها تلك القيم، وأنها لم توجد فيها "ذاتيا" نتيجة للقوى التي توجد في المادة!**

فإذا كانت الجاذبية وقوة الدفع للخارج محدودتين بحد ابتدائي له قيمة، فلا شك أن الحرارة الابتدائية والضغط والكثافة وباقي المتغيرات كانت لها قيم ابتدائية! ومعنى أن يكون لها قيم ابتدائية **أنها انتقلت من حيز العدم إلى حيز الوجود ممتلكة تلك القيم الابتدائية**، لا أنها حصلت على تلك القيم الابتدائية نتيجة انضغاط المادة أكثر، أو انجذابها أكثر أو ازدياد حرارتها أكثر، **لقد كانت القيم القصوى لديها لحظة البداية**، ثم أخذت بالتناقص، فقد أعطيت تلك القيم للمادة من خارجها! **لقد خلقت المادة ولديها تلك القيم! وهذا دليل على الخالق!**

دليل على الخالق من ناحيتين: أولهما: اكتساب المادة والطاقة لقيم معينة ابتدائية قصوى، ابتدأت بعدها بالتناقص، فهو اكتساب غير ناتج عن المادة نفسها، خلقت المادة وهي تمتلك قيما عليا من تلك المعايير.

---

[4] فقط ستة أرقام، د. مارتن ريس أستاذ علوم الفيزياء وفلكي المملكة المتحدة، ترجمة جنات جمال وآخرون، ص 92- 93 مركز براهين لدراسة الإلحاد.

وثانيها: لأنها أعطيت تلك القيم وفيها "تعيير منضبط دقيق محكم" على أساسه زادت قوة التوسع (قوة الطاقة المظلمة) عن قوة الانجذاب (قوة الجاذبية الهائلة) وتم تعييرها بدقة متناهية، وتحددت على أساس تلك الدقة مسألة التوسع اللطيف، الذي ما زال مستمرا في تناغمه ودقته في الكون إلى يومنا هذا، وهكذا، فالتعيير بدأ لحظة الخلق وكان شرطا مسبقا لنشأة منتجة للكون المنتظم لا للفوضى!

انفجار منتظم أم عشوائي؟ هل الانفجار بسبب الانضغاط العالي أو الجذب اللانهائي العالي في البداية؟

يقول مارتن ريس: "من الخطأ التفكير في أن الضغط العالي في الكون المبكر هو (القائد) للانفجار؛ فالانفجارات تحصل نتيجة اضطراب الضغط، حيث يسبب انفجار القنابل على الأرض أو المستعرات الأعظمية Supernovae في الكون دفقة مفاجئة من الضغط الداخلي تقذف بالأنقاض نحو البيئة الأقل ضغطا، لكن في الكون المبكر كان الضغط الداخلي ذاته في جميع النواحي، إذ لم تكن هناك حواف، ولم تكن هناك (منطقة) (خالية) في الخارج!"[5]

أضف إلى ذلك أننا نصف النظام الذي بدأ منه الكون دائما بوصف: منخفض الإنتروبي، أي بلا عشوائية، فكيف نشأ الكون بادئ ذي بدئ بإنتروبية منخفضة جدا، **بل انطلق من انتظام شديد**، حيث إن الرتق الذي حوى مادة الكون الأولى لو كان فيه أي مادة غير منتظمة في ظل الضغط والجاذبية الهائلة لتحول إلى ثقب أسود!

قال باول ديفيز: "لقد كانت الخاصية الأولى والأكثر وضوحا هي مسألة: ما الذي سبب الانفجار الكبير فعلا؟ وكان السؤال المتعلق بهذا هو: لم كان الانفجار الكبير بهذا الحجم بدلا من أن يكون أكبر أو أصغر، ما الذي قرر بالضبط زخمه؟ كانت هناك أحجية كون الهندسة الضخمة للكون مسطحة، والسر المتعلق بها وهو لماذا كانت (كتلة-طاقة) الكون لا تختلف عن الصفر؟ [أي محصلتها] لكن المعضلة الأكبر تتعلق بالتجانس غير العادي للكون على المقياس الكبير كما تجلى ذلك في نعومة شفق الإشعاع الخلفي الكوني، [أو الوهج العاقب للانفجار العظيم الذي تم تصويره ودراسته منذ سنة 1965، وهو يملأ الكون كله] وكما أشرت سابقا فعلى مقاييس بلايين السنين الضوئية يبدو الكون نفسه تقريبا في كل مكان، وتنطبق ملاحظات مماثلة على التمدد، فمعدل التمدد هو نفسه في الاتجاهات كلها، وحسب أفضل ما توصلنا إليه: في المناطق

---

[5] فقط ستة أرقام، د. مارتن ريس أستاذ علوم الفيزياء وفلكي المملكة المتحدة، ترجمة جنات جمال وآخرون، ص 93 مركز براهين لدراسة الإلحاد.

الكونية كلها... وعلى سبيل المثال فإن **انفجارا أكبر كان سيوزع الغازات الكونية بسرعة كبيرة بحيث لا تستطيع التجمع في مجرات**، وبالمقابل **لو كان الانفجار الكبير أصغر لانهار الكون على نفسه قبل أن تبدأ الحياة**... فهو يتمدد ببطء كاف ليسمح للمجرات والنجوم والكواكب أن تتشكل، ولكن ليس ببطء كبير بحيث يخاطر بانهيار سريع" [6] إذن، فهو انفتاق منتظم جدا، محسوب جدا، معير جدا، له هندسة منتظمة لم يبلغها إلا بتعيير منضبط دقيق لمتغيرات كثيرة، فهل المادة الصماء هي من فعلت كل هذا، وهي التي لو تركت لتسير وحدها لأفرزت عشوائيات لا حد لها؟ أم أنه الخالق العظيم؟ **لا شك أنه الخالق العظيم**!

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾:

لقد أثبتنا إذن أن الكون المتوسع قد انطلق في لحظة معينة من الزمن من "رتق" يسمى أحيانا "كرة اللهب" عبر ما يصطلح عليه "بالانفجار العظيم" أو "الانفتاق العظيم" ولفظ الانفتاق أقرب للدقة من الانفجار، إذ يرى الدكتور مارتن ريس[7] "أن تشبيه البيج بانج[8] بالانفجار الناتج عن الضغط العالي المضطرب في الكون المبكر، هو تعبير مضلل، لأن الضغط في الكون المبكر كان ذاته في جميع النواحي، إذ لم تكن هناك حواف، ولم تكن هناك منطقة (خالية) في الخارج! من هنا فهو لا ينطبق تماما على صورة "الانفجار" النمطية".

ويرى البروفيسور باول ديفيز أنه: "**من غير المحتمل أن يُحدث انفجار ما تمددا ناعما ومتسقا "ومتماثل المناحي**"، لأن **الانفجارات عشوائية عادة**، ولو كان الانفجار الكبير **غير متساو ولو قليلا بحيث يتجاوز معدل التمدد في أحد الاتجاهات المعدل في اتجاه آخر، فسينمو الكون أكثر فأكثر اختلالا مع ابتعاد المجرات الأسرع**، إلا أننا لا نلاحظ ذلك، **فمن الواضح أن للانفجار الكبير الزخم نفسه في الاتجاهات كلها وفي المناطق جميعها في الكون**، وأنه "**مُنَغَّمٌ** (معير تعييرا دقيقا) **حتى درجة عالية من الضبط**، **ويبدو هذا محيرا بما يكفي**"[9]

هذا بالطبع، لا يحيرنا لأننا نرى فيه سببية لا يمكن للعقل تجاوزها، ويجب أن يُنسب للخالق العظيم!

---

[6] الجائزة الكونية الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة، Why our universe is just right for life، باول ديفيز ترجمة د. سعد الدين خرفان، ص 79

[7] فقط ستة أرقام، د. مارتن ريس أستاذ علوم الفيزياء وفلكي المملكة المتحدة، ترجمة جنات جمال وآخرون، ص 91-92 مركز براهين لدراسة الإلحاد.

[8] تم طرح اسم الانفجار الكبير بيج بانج لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين من قبل المنظر الشهير بجامعة كامبريدج فريد هويل. ثم إن تسمية البيج بانج أي الانفجار الكبير غير دقيقة، إذ إن الرتق كان بالغ الصغر قبل انفجاره، وحتى يحصل صوت ضخم للانفجار (بانج) فإنه بحاجة لوسط ينقله، ولم يكن وقتها لا هواء ولا فراغ ينقل هذا الصوت، فهو انفجار صامت!

[9] الجائزة الكونية الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة، Why our universe is just right for life، باول ديفيز ترجمة د. سعد الدين خرفان، ص 80.

وبما أن المادة كانت شديدة التصلب، شديدة الكثافة، فإن فصلها عن بعضها بعضاً هو أقرب إلى وصف: الفتق، واجتماعها معا مادة وشعاعا (طاقة) ينطبق عليه وصف الرتق، إذ الرتق ضد الفتق، وهو التحام والتآم والتصاق خال من الصدوع، لذلك فالأدق القول: الانفتاق العظيم!

هكذا وصفه الله تعالى في القرآن الكريم حين قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)﴾ الأنبياء، وباستقراء معاني الرتق في معاجم اللغة العربية نخلص إلى أن الرَّتْقَ ضدّ الفَتْق، وهو إلحام الفَتْق وإِصلاحُه ليلتئم، ففيه حالة التصاق والتحام وانسداد تام، فلا تصدع فيه، وأما الفتق، فعملية شق وفصل لشيء محبوك متصل، وفي الوقت نفسه تصدع للعناصر المنفتقة بحيث تبرز وتنفصل فتظهر فيها خصائص كانت خافية في حالة الرتق والاجتماع، فالفتق: فتح وشق لجسم ملتحم، وإبراز ما في داخلة من خلال تسليط ما يفكه أو يشقه عليه، فيضوع كالمسك تدخل عليه شيئا فتستخرج رائحته، أو يظهر كالشمس بعد أن أخفتها الغيوم من خلال تفتق الغيوم عنها، وكذلك من معانيه ظهور الخلاف بعد الالتئام، أي أن تجتمع الأشياء فتختلط فلا تعرف أنواعها، ومن ثم حين تشق وتتفتق تتباين وتبرز وتظهر. وقد اختار القرآن لفظ الفتق ولم يختر لفظ الشق (انشقاق[10]) ولا الانفطار ولا التصدع مع تقارب معانيها، ففي الانشقاق إشارة خفية إلى مشقة، والله يبين لنا أن خلق السماوات والأرض لم يتعب الله، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ **لُغُوبٍ**﴾ (38) سورة ق، ولفظ الانفطار أقرب إلى الخلق والإيجاد، وسياق الآية 30 من الأنبياء هنا هو سياق فتق الرتق الذي ضم كل مادة ستتشكل منها السموات والأرض فيما بعد عن بعضه، لذلك كان أدق لفظ هو الفتق.

ثائر أحمد سلامة، أبو مالك

---

[10] الانشقاق: كلمة شق/ توحي بمعناها والشَّقُّ: الصَّدْع البائن، شَقَقْت الشيء فانْشَقَّ و شَقَّ النبتُ يَشُقُّ شُقوقاً وذلك في أَول ما تَنْفَطِر عنه الأرض. وشقَّ نابُ الصبي يَشُقُّ شقوقاً: في أَوّل ما يظهر، وتلاحظ أن منها المشقة وما فيها من جهد، ومثله: ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾، سورة الانفطار، فَطَرَ الشيءَ: شقه وتَفَطَّرَ الشيء: تشقق وفي الحديث: قام رسول اللهِ حتى تَفَطَّرَتْ قدماه أَي انشقتا وفي القرآن: ﴿السماء مُنْفَطر به﴾، وفَطَر نابُ البعير يَفْطُر فَطْراً: شَقّ وطلع، وانْفَطَرَ الثوب إِذا انشقِ وكذلك تَفَطَّر، وتَفَطَّرَت الأَرض بالنبات إِذا تصدعت وفي التنزيل العزيز: ﴿الحمد لله فاطِرِ السمواتِ والأَرضِ﴾؛ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ما كنت أَدري ما فاطِرُ السموات والأَرض حتى أَتاني أَعرابيّان يختصمان في بئر فقال أَحدهما: أَنا فَطَرْتُها **أَي أَنا ابتدأْت** حَفْرها،، وذكر أَبو العباس أَنه سمع ابن الأَعرابي يقول: أَنا أَول من فَطَرَ هذا أَي ابتدأَه والفِطْرةُ بالكسر: الخِلْقة؛ وقد فَطَرَهُ يَفْطُرُهِ بالضمِ فَطْراً أَي خلقه، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله﴾ ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ فالفطر متعلق بالشق وبالبدء بحالته كأنه المرحلة الأولى للشق، إذا السماء انفطرت، كما البئر التي فطرها الأعرابي أي ابتدأ حفرها، وما يصحب هذا الانفطار من تصدع وبروز كالنتوء، فالبدء بالانشقاق المصحوب بالفطور ليكبر هذا الانشقاق ليصبح طورا آخر وهو أن السماء كلها منشقة فيها صدع بائن. ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ التفاوت الفطور بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.